ويدخل في مرحلة تكثيف الواقع وعرضه بكل ما فيه من هوان وانحطاط ، دون اي توجيه اخلاقي او سياسي . فكأن شاعرنا حين يقذف بالواقع الدنيء امام بصيرة القارىء يترك هذا القارىء مع وجدانه ليتساءل : هل ما سمعه حق وصدق ، فان كان حقا فما العمل ، وما هو السبيل الى تغيير هذا الواقع ؟

ومعين بسيسو يحقق في شهادته المدمرة هذه مرتبة رفيعة من التنزه الفني « ARTISTIC DISENTERESTEDNESS » بالصورة التي نادى بها « كانت وشوبنهاور » . فقد جادل أصحاب هذه المدرسة بحق ان مهمة الفنان تقتصر على عرض الوضع كما يراه بأمانة وحياد ، لا يحق معهما حتى للفنان ان يتدخل في شرح او توجيه ، فاذا وصل العمل الفني الى المتلقي كانت نزاهة الفن وحياده اوكد اسباب المتعة في نفس المتلقي الذي يصبح بعد ذلك حرا في العمل بالاستبصار او تركه . وقد يبدو غريبا ان نتحدث عن الحياد والتنزه في نتاج شاعر كمعين بسيسو الذي يكاد ان يكون اكثر الشعراء العرب انحيازا الى تحرير وطنه وانغماسا في النضال من اجل تطوير امته العربية المتخلفة . ومع ذلك فيمكن الجزم ، دون كبير مجازفة ، بأن شعر معين بسيسو يحوز صفة التنزه والحياة الصعبة على شاعر في مثل موقعه ــ فهو بعد ان بلور رؤيته عن الواقع العربي ، وشحذ أدواته الفنية وتمكن من استخدامها كيف شاء ، اكتفى بعرض هذه الرؤية بكامل عناصرها ــ كما شاهدناها في ــ تصويره « لعصر الكلاب » ــ دون ان يستصرخ ضمائر الناس او ايديهم لتهديم هذا الواقع المتفسخ . وبذلك نجا من التوجيه والخطابة اللذين افسدا معظم الشعر العربي الملتزم بقضية اجتماعية او سياسية . فكان ، مرة أخرى ، الشاعر الطليعي . لقد كون رؤيا عن الواقع العربي واكتفى بعرضها عرضا فنيا جيدا . وهذه هي حدود كل فنان عظيم . اما ان هذه الرؤيا مطابقة للواقع أو مجحفة بحقه أو مهادنة له ، فهذا أمر متروك للفنان كلية ولا يحق للنقد الادبي ان يقاربه الا من زاوية المناقشة الايديولوجية ، وهي ليست من عمل النقاد بل من مهمات المنظرين وموظفي الرقابة ــ وكلا الفريقين من جماعة السلطة ولا علاقة لهما بهيكل الأدب ورسالته المقدسة .

غير أن القارىء العربي ، ومعه الناقد العربي ، لا بد ان يشعرا بالتقدير والاحترام لشاعر يملك هذا القدار العظيم من جهنمية البصيرة ، وحرية الراي ، وشجاعة الجهر به في وجه وضع عربي تغيب عنه الديمقراطية والتنمية ، في الوقت الذي يواجه اشرس غزوة امريكية ــ صهيونية غرفها العالم المعاصر . وكما يعرف القارىء فقد بدات هذه الغزوة المستمرة بقسم من فلسطين في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، ثم اتسعت خلال الثلاثين عاما التي تلتها لتشمل جميع الدول العربية في بلدان الشرق الاوسط .. ولا تزال تطالب بالمزيد من الاراضي والدعم العسكري ضد حركة التحرر العربي .

وبما ان فلسطين هي وطن الشاعر فانها أيضا موضوع حبه ومضمون رؤياه وعلامة خلاصه وخلاص شعبه من بطش الاحتلال الاسرائيلي ، ونل التشرد في البلاد العربية وباقي بقاع الأرض . غير أن العجز العربي خلال أربع حروب (١٩٤٧ ، ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ ، ١٩٧٣) لم يلق في قلوب الفلسطينيين اليأس من استرداد حقوقهم المشروعة ، بل أثار فيهم روح التحدي والمقاومة ، مما دفعهم الى تنظيم مقاومتهم المسلحة .